

التفكير بالموجود

١٣/٢/١٤٣٦هـ

المشاهد أن لغة التذمُّر من الزمن، ومن الواقع المعيش - سواء على المستوى الفردي أو المجتمعي - ترتفع بشكل مستمر، ساعد على ذلك: مواقع التواصل الاجتماعي، التي صارت متنقِّساً للتعبير عن الظروف التي يمرُّ بها أكثرُ الناس، خاصة ما يتعلق بالأقدار المؤلمة، والأحوال الاقتصادية السيئة. وبثُّ الشكوى قد يُخفِّف من الألم، على حد قول الشاعر:

وَلَا بُدَّ مِنْ شَكْوَى إِلَى ذِي مُرْوَةٍ

يُوَاسِيكَ أَوْ يُسْلِيكَ أَوْ يَتَوَجَّعُ

لكن ثمة طريقة مجرّبة في التعاطي مع الظروف التي تمرّ بالإنسان، وهي ما يمكن تسميته (التفكير بالموجود)، وهو أسلوب ناجع ومجرب، وقد طبّقه العقلاء من المسلمين وغيرهم.

وفي القصة المشهورة عن عروة بن الزبير (ت: ٩٤هـ) ما يوضح المراد بشكل أدق؛ فقد ابتلي رَحِمَهُ اللهُ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ بِفَقْدِ وَلَدٍ لَهُ، رَكْلَةٍ حِصَانٌ، فَمَاتَ، وَسَرَى دَاءُ الْأَكْلَةِ إِلَى رِجْلِهِ، فَقُطِعَتْ! فَاتَتْهُ قَرِيْشٌ وَالْأَنْصَارُ يَعْزُونَهُ فِي ابْنِهِ وَرِجْلِهِ؛ فَقَالَ لَهُ عَيْسَى بْنُ طَلْحَةَ بَنُ عَبْدِ اللَّهِ: أَبْشِرْ يَا

أبا عبد الله، قد صنع الله بك خيرًا، والله ما بك حاجةٌ إلى المشي. قال: ما أحسن ما صنع الله إلي! وهب لي سبعة بنين، فمتعني بهم ما شاء، ثم أخذ واحدًا، وترك ستة، وهب لي ست جوارح، فمتعني بهن ما شاء، ثم أخذ واحدة، وأبقى لي خمسًا - يدين، ورجلًا، وسمعا، وبصرًا - ثم قال: اللهم، لئن كنت أخذت لقد أبقيت، ولئن كنت ابتليت لقد عافيت^(١).

فتأمل في كلمات عروة رَحْمَةُ اللَّهِ إِذْ نَسَبَ المفقود إلى الموجود؛ فوجد أنه في خير عظيم، فلئن ذهب ولدٌ فلقد أبقى له ستة، ولئن ذهبت جارحة فلقد أبقى الله له الكثير.

لو أردنا أن نُعبّر عن هذه المصيبة على طريقة المتذمرين، لوجدنا أنه سيقارن نفسه بمن لم يفقد أي جارحة، وبمن لديه أولاد أكثر منه، أو من لم يبتلوا بفقد أحدهم! وهذا كله لا يُجدي على صاحبه شيئًا، فلن يُعيد هذا التذمرُ عَجَلَةَ الزمن، ولن يعيد له ولده ولا قَدَمَهُ، مع زيادة في الهم والغم قد تُذهب الأجر، وتُجلب الوزر - إن صحبه تسخط - وربما تبع ذلك مشاعر سلبية - من القلق والاكتئاب - تزيد الطين بلة.

إن هذا الأسلوب في التفكير التفكير بالموجود يحتاج إليه الأب والزوج حين يكثُر الإلحاح من داخل البيت على شراء الكماليات بدافع التقليد والمحاكاة للآخرين، وذلك بذكر ما عندهم، وفقد الآخرون، وليس العكس؛ مستشعرًا قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يربي أمته على التعامل مع ما يراه أحدنا من تميّز غيرنا علينا في أمر الدنيا: «انظروا إلى من أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله

(١) ينظر: (التعازي) للمدائني (ص ٥٦).

عليكم»^(١)، وهذا كله ليس تهرباً من النفقة، ولكن لكبح جماح الرغبة في الشراء لمجرد الشراء والتقليد، وليس الحاجة.

وهذا الأسلوب في طريقة التفكير، إنما هو مفيد في التعامل مع أقدار الله المؤلمة؛ أما في باب التذكير والتنبيه على الفضائل الدينية؛ فلا بد أن نعكس الأسلوب إلى: (التفكير بالمفقود)، ومن الأمثلة التي تُقرب هذا المعنى: أن أحد الإخوة أراد أن يتحدث عن فضل صلاة الجماعة؛ فقرر أن يغيّر طريقة الطرح المعتادة مع أهميتها ولكن هذه المرة بأسلوب (التفكير بالمفقود)، فذكر الفضائل المتعلقة بحضور الجماعة، وما الذي يخسره من لم يحضرها؟ ومن جملة ما ذكر:

إذا كان الذي يحضر الجماعة يَفْضَلُ صلاةَ الفَدِّ بسبع وعشرين درجة؛ فهذا يعني أن الفدَّ (يَفْقِدُ) مئة وخمسة وثلاثين درجة يومياً، وقراءة الألف درجة أسبوعياً!

وإذا كان الذي يحضر الجماعة ينالُه هذا الفضل: «من غدا إلى المسجد، أَو راح»^(٢)؛ أعدَّ الله له في الجنة نُزْلاً^(٣) كلما غدا، أَو راح»^(٤)، فكَم نُزْلاً (يَفْقِدُ) المتخلفُ عنها يومياً؟^(٥).

(١) رواه مسلم (رقم ٢٩٦٣).

(٢) أصل غدا: خرج بغدوة؛ أي مبكراً.

وراح: رجع بعشي، وقد يستعملان في الخروج مطلقاً توسعاً، وللحديث روايتان يتبين بهما أن المراد بالغدو: الذهاب، وبالرواح: الرجوع. انظر: شرح القسطلاني (٣٣/٢).

(٣) النُّزْل: ما يهبُّ للضيف. انظر: كشف المشكل (٤٠٢/٣).

(٤) رواه البخاري (رقم ٦٦٢)، ومسلم (رقم ٦٦٩).

النُّزْل: ما يهبُّ للضيف. انظر: كشف المشكل (٤٠٢/٣).

(٥) وهذا الفضل فقط لمن غدا أَو راح! قال ابن بطال: «فما ظنك بما يُعَدُّ له، ويتفضل عليه بالصلاة في الجماعة واحتساب أجرها والإخلاص فيها لله تعالى!» شرح صحيح البخاري لابن بطال (٢٨٥/٢).

وإذا كان الذي يحضر الجماعة «لم يخطُ خطوة، إلا رُفِعَتْ له بها درجة، وُحِطَ عنه بها خطيئة»^(١)؛ فكم سيفوت المتخلف عنها من رفعةٍ للدرجات وُحِطَ للخطايا؟

وهكذا، يمكن تفعيل هذين النوعين من التفكير في نظرتنا لسائر أنماطنا في الحياة، فأنا واثق أن النتائج ستكون بإذن الله أكثر إيجابية، وأعظم نفعًا.



(١) رواه البخاري (رقم ٦٤٧).